السياسة اللغوية فى زمن العولمة

المصطفى تاج الدين (*)

١- اللغة والهوية :

يــرى علمــاء اللسانيات ان اللغة والهوية شيئ واحد [١] ، والمقصود بالهوية هنا هــوية هوية الفرد وهوية المجتمع، ولهذا يمكن تأسيس الكيانات الإجتماعية والسياسية علــى أســاس لغــوى، ومــن هنا تأتى خطورة المكون اللغوى فى تحقيق أو زعزعة الأســتقرار السياسى للمجتمعات [٢] ولقد كانت اللغة عاملًا حاسمًا فى التمييز بين العدو الصديق حين الحروب.

ولعــل مــن أكبر المشاكل السياسية فى العالم المعاصر تلك المتعلقة بالصراع العرقى، والــذى لا يبعد كثيرا عن المسألة اللغوية حيث يحصل فى المخيال الجمعى للأمم تماه خطيــر بين العرق والوحدة اللغوية. ونحن متفقون مع العالم اللغوى فيشمان بأن مشكلة العلــوم الإنــسانية ومــنها اللسانيات هى فى اقتراض واستعمال مصطلحات نشات فى ســياقات عامــية او سياسية او قل جمهورية بالمعنى الفلسفى دون ان تخضع لدراسة أكاديمية متخصصة ومن هذه المصطلحات العرق والقومية والشعب والجنسية [٣].

إن مــسألة إنقراض اللغات لا يعنى ذهاب جهاز إتصالى، وإنما يعنى إنقراض أمة وضياع ثقافة، ولهذا السبب نلاحظ انبعاثًا كبيرا للهويات اللغوية، حيث محاولات كثيرة

(*). رئيس وحدة اللغة العربية، جامعة ظفار، صلالة، سلطنة عمان.

(1). Andree Tbouret Keller , Language and Identity : the handbook of sociolinguistics Blackwell publishers 1997 , Oxford UK ,p315

(2) Ronald Waedhaaugh , Language in Competition : Dominance , Diversity and Decline , 1987 Basil Blacwell p39

(3). Jushua A.Fishman , Language and Ethnicity the View from within in ibid 327

وشجاعة لمواجهة تحدى الواحدية اللغوية التى تبشر بها العولمة والتى لا تعنى هيمنة اللغـات الغالـبة وإنمـا تعنـى فى النهاية هيمنة النموذج الثقافى المختزن فى رموز الإتـصال. فاللغـة البيلاروسـية تريد العودة إلى الحياة بعد ان كادت ظروف العصر تخـرجها مـن عـالم الـتداول، واللغـة الكورية التى واجهت ضربات اللغة الصينية ورفـسات اليابانية لن تستسلم للهيمنة الناعمة للغات الأوروبية ن كما أن هناك إحساسا فـى العـالم العربـى بـضرورة حماية العربية إلى جانب جهود الأكراد والأمازيغ والأتراك فى العمل من أجل حماية لغاتهم وتقوية نفوذها.

ومـن المفارقـات الهائلة فى صلة اللغة بالهوية أن لغة كالعربية والتى تعانى فى اوطانهـا مـن قلة الإهتمام، حيث تشير بعض الدراسات إلى عزوف عام لدى الشباب العـرب عـن مـتابعة دراسـاتهم الجامعية فى تخصص لصيق باللغة، تعد لغة مهمة وأساسية لدى العرب داخل حدود ١٩٤٨، حيث نجد إقبالا كبيرا على حصص العربية، والـسبب أنها هنا تعد عنوانا على بقاء الهوية المستمرة وإستمرار الجماعة اللغوية فى الوجود [١].

٢- السياسة اللغوية :

السياسة فى أصل التداول العربى تدور حول معانى الرعاية والمصلحة، وتفيد فى الأصـطلاح القيام بسؤولية الإدارة والرعاية للجماعة السياسية بما يجلب لها المصالح ويدرأ عنها المفاسد، وحينما تقترن السياسة باللغة فأنها تعنى حسب إلجين : " المواقف الرسـمية التـى تتخذها الحكومات تجاه إستعمال اللغة ورعايتها، سواء كانت المواقف مدعـومة بالفعـل كإقـرار او تمـويل البرامج، أو كانت مدعومة بالخطب والقرارت المنمقة على الورق" [٢].

---

(1). Eliezer Ben Rafael , d social division , a case study of Israel , 1994 , Calarendon Press , Oxford. p 210

(1). Suzette Haden Elgin , the language imperative , 2000, Perseus Publishing, Cambridge, p25

وإذن فـإن السياسة اللغوية هى عبارة عن نوع التعامل الرسمية لأجهزة الدولة مع اللغـة أو اللغـات المستعملة داخل كيان سياسى معين وهو الدولة. فاعتبار العربية لغة رسـمية فى الجزائر أو العراق مع عدم منح اللغتين الأمازيغية والكردية المرتبة نفسها يدخل فى إطار السياسة اللغوية، كما ان اعتماد الملاوية من قبل الحكومة الماليزية لغة رسـمية للبلاد مع السماح للمكونات الأخرى بإستعمال لغاتها فى مدارسها الخاصة يعد مـن قبيل السياسة اللغوية. ولعلنا نذهب إلى إنه ليس من الضرورى أن تكون السياسة اللغـوية منصوص عليها فى القانون حتى تعد سياسة لغوية بل يكفى العرف المتداول فـى دولة ما لتحديد نوع السياسة المتبعة. وحسب دينيس أجير [٢]، فإن ثمة أنواع من السياسات اللغوية :

٢- نـوع يركـز فـى تـصوره وأهدافـه على ضرورة الوحدة الوطنية والوفاق الإجتماعـى، ولأجل تحقيق هذا يتم التركيز على لغة واحدة لتصبح هى اللغة الرسمية وما عداها تبقى على هامش التداول، وعادة ماتقوم هذه السياسة على قـيم مثالية كالوطنية والقومية، وفى سبيل تحقيق هذين الهدفين يتم قهر اللغات الأخـرى والسعى إلى مواجهة إنبعاثها، والأكيد على ضرورة حماية اللغة من العدو سواء كان حقيقًا أم متخيلًا.

٣- نوع يتميز بإعتماد تصور أرحب لمفهوم الوفاق الإجتماعى حيث الأعتقاد بأن قـوة المجتمع فى تنوعه وفيسفسائيته، إلا أن مثل هذا التصور يبقى عادة معلقا فـى سماء النظرية، حيث تبقى المنافسة بين الكيانات اللغوية فى المجتمع على أشدها، وهنا تتحول السياسة اللغوية إلى فلسفة يتم إعمالها لتحقيق التوازن بين الجماعات اللغوية المتنازعة.

---

(2). Dennis Ager , Motivation in language planning and language policy, 2001, Multiligual Matters ltd, pp 177-178

٣- السياسة اللغوية من منظور تاريخى :

حيـــنما ذهب اليونانيون إلى غير المتكلمون باليونانية برابرة ومتوحشون[١] فإن هذا يكـــن إعتـــباره شكلا ما من أشكال السياسة اللغوية القائمة على بعد تداولى أصيل فى الـــثقافات الإنسانية وهو بعد التفضيل، بحيث تتمحور بعض الثقافات حول ذاتها وتلحق جمـــيع الكمالات بها وتكيل النقائص لغيرها، وكذلك نظر السريان والعبرانيون للغاتهم علـــة إنهـــا أفضل اللغات وان المتكلم بها أفضل ممن يقصر باعه عن إستعمالها، ولقد أدخلـــنا هذه المواقف فى إطار السياسة اللغوية أولا لأن لاالمواقف اللغوية تؤثر بشكل بالـــغ فـــى الـــسياسات اللغـــوية[٢]. وثانيًا لما ينتج عنها من نزوعات للهيمنة السياسية واللغـــوية على الشعوب الناطقة بغير لغة الأقوياء والذين ينظر لهم عادة على أنهم أقل إنـــسانية وأقرب إلى البهائم منهم للإنسان. ولم يخل التاريخ الإسلامى من هذا التصور وإن لم يصل إلى مستوى تجريد الأعاجم من إنسانيتهم بفعل قيم الإسلامالسمحة.

وفـــى الـــتاريخ الأوروبى يصعب تحديد متى بدأ الوعى بضرورة وضع سياسات لغـــوية واضـــحة للعـــالم، غير ان الصراع اللغوى ظل من اهم مجالات الصراع بين القوميات الأوروبية.ففى وقت هيمنة النورمانديين على السلطة فى بريطانيا حدث نوع مـــن التخطـــيط لكى تهيمن اللغة الفرنسية على الإنجليزية، فى إطار سياسة إستعمارية واضحة لتنافس من خلالها الفرنسية اللغات المحلية وعلى رأسها الإنجليزية [٣] .

---

(1). Ibid.

(2). Herbert Chirst, Language attitudes and educational policy , ın Encyclopedia of language and education Vl on language policy and political issues in education , edited by Wodak and David Corson , Kluwer Academic Publishers , 1997 pl.

(3). Language in competition, p 67.

(1). Ibid p68

(2). Ibid p 68.

وهكـذا أصـبحت الفرنـسية وهـى لغة الأقلية لغة النخبة المستعملة فى المحاكم والمحافـل الرسمية والدينية والإدارات وعلى الرغم من بقاء الأغلبية من السكان على لغـتهم الأم، إلا أن الـسياسة للدولـة قـد قضت بهيمنة الفرنسية على مجال التواصل الرسـمى. وفـيما بعـد حدث نوع من التوازن بين اللغات المختلفة فى بريطانيا حيث هيمـنت الفرنـسية علـى لغة المحاكم والقانون، وبقت اللاتينية لغة العلم والدين، بينما كانـت الإنجليزية هى اللغة الدارجة بين عامة الناس، وكان ينظر لها على أنها لغة لا تصلح للكتابة والتوثيق[1].

غيـر أن التاريخ كان يسير فى صالح اللغة الأنجليزية والتى وبعد ضم نورماندى إلـى فرنـسا كان لابد للطبقة النورماندية فى بريطانيا إما تعود إلى فرنسا أو أن تبقى لـتفقد بعـد ذلك الجاه والسلطة فى المجتمع الجديد. وبعد هذه المرحلة تم إعتماد اللغة الأنجليـزية لغـة رسـمية مـع إبقاء الفرنسية لغة مهمة تدل على سعة ثقافة متكلمها وتحـضره لأن اللغـة الفرنسية فى القرن الثالث عشر كانت لغة الثقافة والحضارة إلى درجة كانت تنافس فيها اللاتينية ذاتها[2].

هكـذا أصـدر الملك إدوارد الثالث مرسوما أقره البرلمان بإعتماد اللغة الإنجليزية لغـة المحـاكم والوثائـق القانونية، غير أن هذا لم يكن من السهل تطبيقه إذ لم تستطع الإنجليـزية فـرض نفـسها فى المجال القانونى والقضائى بصفة كاملة إلا فى القرن الـثامن عشر ومن هنا يمكن فهم التأثير الكبير للغة الفرنسية على اللغة الإنجليزية فى مجال الإصطلاحات القانونية

٤- التعدد واللغوى :

من الصعب أن تجد دولة أو مجتمعا يتحدث بلغة واحدة، فالتعدد اللغوى أمر واقع، وعلـى كل سياسة لغوية رشيدة ان تعمل على تأكيده بدل محاربته. فموت اللغة خسارة

لا يمكـــن أن تعـــوض[1]، والذين يعملون، والذين يعملون من اجل القضاء على اللغات الاخـــرى مهمـــا كان الدافع دينيا او قوميا لا يعرفون قيمة التعدد فى الالسن، والذاكرة التاريخية المختزنة فى رموز اللغة. ولعلى لا اخطىء اذا نظرت الى لغات الناس على انهـــا اثـــار شاهدة على تاريخ ومعالم لو درست بعمق لتحدثت بقصص فيها عبر لمن القـــى السمع وهو شهيد، وليس من الغريب ان يشهد هذا العصر الحاضر وهو عصر الامبـــرياليةوالعولمة اكبرعملية لموت اللغات وانقراضها فالامر يتعلق بمذبحة حقيقية ان لم نسع لايقافها لضاع خير كثير. لقد تخيل اللسانى دافيد كريستال الزمن الذى ستهيمن فـــيه الإنجليزية فى العالم أجمع، وتتحول فيه الى اللغة الوحيدة للتواصل، واستنتج بان هذا سيكون أكبر كارثة عرفتها البشرية عبر التاريخ[2].

ولعـــل الإســـلامقد اكد على قيمة التعددية اللغوية حينما ربط القران الكريم بين اختلاف الألـــسنة ومعـــرفة إعجـــاز الله فى الخلق، فهذا الاختلاف ايه من ايات الله وليس هناك مـــرر علمى ولا خلقى لتفضيل لغة على لغة. يقول ابن حزم فى الاحكام: " ولا ندرى اي لغـــة هـــى التى وقف أدم عليها أولا، إلا أننا نقطع على أنها أتم اللغات كلها... وقد قـــال قوم هى السريانية وقال قوم هى اليونانية وقال قوم هى العربية والله أعلم، إلا أن الـــذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية هى لغة مضر وربيعة لا لغـــة حميـــر، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها... واذ تيقنا ذلك فاسريانية اصل للعربية وللعبرانية معا، والمستفيض ان اول من تكلم بهذه العربية اسماعيل عليه السلام

---

(١). هـــى الفكرة نفسها التى أجمع عليها اللسانيون فى المؤتمر الدولى للسانيات بإقليم كيبيك حـــيث ألحـــوا على اليونسكو بأن تمول مشاريع لحماية اللغات المهددة بالإنقراض عن طريق تصنيف قواميس لها، وكتابة أنحائها، وتقييد نصوصها راجع :
David Crystal, Language Death , 2000 , Cambridge , p v ii)

(٢). الإحكام فى أصول الأحكام، ج ١/٥٥-٥٦

فهـــى لغـــة ولـــده والعبـــرانية لغة اسحاق وهى لغة ولده، والسريانية بلا شك هى لغة ابـــراهيم صـــلى الله عليه وعلى نبينا وسلم" [1]، وذهب رحمة الله مذهبا تجاوز به تلك الانظـــار الطفولية للغات والتى كانت سائدة قبله وفى عصره، معبرا عن الأفق الرحب الذى وصل اليه الفكر التعددى فى الأندلس خصوصا وفى الحضارة الإسلامية عموما، يقـــول:" وقد قال قوم ان اليونانية ابسط اللغات، ولعل هذا إنما هو الأن فان اللغة يسقط أكثـــرها، ويـــبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم أو بنقلهم عن ديـــارهم واخـــتلاطهم بغيـــرهم فانمـــا يقيد لغة الأمة وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها وفـــراغهم" [2]، فالتفاضـــل بـــين اللغـــات لذاتها غير موجود ولا معقول، وقد يحصل التفاضـــل من جهات خاجية عن اللغة كقوة المتكلم ونشاطه وتشجيعه للغته وابداعه بها، ولهـــذا فتفـــضيل لغة على لغة بدون سبب خارجى وهم من الاوهام عند ابن حزم فقد "تـــوهم قـــوم فى لغتهم انها افضل اللغات وهذا لا معنى له لان وجوه الفضل معروفة، وانمـــا هـــى بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة وقـــد قال تعالى" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"... وقد غلط فى ذلك جاليـــنوس فقـــال: إن لغة اليونانيين افضل اللغات لأن سائر اللغات انما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، قال على: وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكره جالينوس ولا فرق.

وقد قال قوم العربية افضل الغات لان بها كلام الله تعالى، قال على وهذا لا معنى لـــه... فـــبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه، وقد انزل التوراه والانجيل والزبور،

---

(١). الإحكام ج ١ / ٥٦ - ٥٧

(٢). الإحكام فى أصول الأحكام ج ١/٥٥-٥٦

وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية وانزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية فتساوت اللغات فى هذا تساويا واحدا" (١).

ويضيف رحمة الله فى الرد على من قال أن اللغة العربية لغة أهل الجنة " وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء فى النص والاجماع ولا نص ولا اجماع فى ذلك... وقد ادعى بعضهم أن اللغة العربية هى لغتهم واحتج بقول الله تعالى: ﴿واخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين﴾ فقلت له: فقل انها لغة أهل النار لقوله تعالى عنهم انهم قالوا: ﴿سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص...﴾ ولأنهم قالوا: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير...﴾ وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود إلى ان استجازوا الكذب والحلف على الباطل غير العبرانية، وادعوا ان الملائكة الذين يرفعون الاعمال لا يفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها" (٢)

٥- العقوق اللغوية:

اللغة مكون أساسى من مكونات الهوية، ولذلك يجب الحفاظ عليها ورعايتها وتطويرها تحقيقا لمقصود الله من الاختلاف فى الالوان والالسنة. وتشير الاحصاءات الى ان ما يقرب من نصف اللغات فى العالم مهددة بالانقراض، ولعل التنوع اللغوى شبيه الى احد ما بتنوع الماكل والمشارب، ولعلنا نصاب باجزع عندما نعرف مثلا اننا سنأكل طعاما ما لمدة اسبوع، كما اننا سنصاب حتما بالاكتئاب اذا كنا نتنزه فى بستان مملوء بشجرة من نوع واحد. ومع ذلك فاننا لا نصاب بمثل هذا الجزع حينما نساهم فى القضاء على لغات عديدة بالادعاء العامى والساذج بان لغتنا افضل اللغات أو أن اللغة الواحدة تعنى الوطن الواحد.

---

(١) الإحكام ج ١ / ٥٨

(٢) الإحكام ج ١ / ٥٩

٦- موت اللغات في زمن العولمة:

يـــرى بعـــض علماء اللغة ان اللغة تموت كما يموت الإنسان، فهى تحيا مادام بها التواصل جاريا، ولعل ابن حزم كان محقا حينما ربط انقراض اللغات بفقدان السلطان. إلا أن هـــذه الفكرة وان صحت فيها مجال التنافس والصراع فانها لا تصح ولا ينبغى ان تـــصح فـــى المجال الإنساني الرحب مجال حقوق الإنسان فى بقاء تراثه وتاريخه. والعـــولمة بها هى مزج من القمر النفسى والرمزى والعسكرى والاقتصادى على اتباع الـــنموذج المـــتفوق حـــضاريا تعبر عن فقر النموزج ذاته، وتشير الى ضعف عام فى الاحـــساس بجمالـــيات الاخـــتلاف. غيـــر ان العولمة فى اعتقادنا ليست سوى ظاهرة موضوعية املتها الظروف الاقتصادية والتطور الرهيب فى مجال الاعلاميات، اى ان العـــولمة ليست فلسفة او ايديولوجيا حتى نقف منها موقف الرفض السطحى. فالظواهر الموضـــوعية هى فى حد ذاتها تخضع للارادة الإنسانية، اى ان ارادتنا يمكن ان تحول الظواهـــر كالعـــولمة مـــثلا الـــى حـــيث تخدم الناس وتقودهم الى مزيد من الرفاهية والاشـــباع.فالمحافظـــة على اللغات وحمايتها ينبغى ان تتحول الى استراتيجية عالمية تستفيد من انجازات العولمة على صعيدين:

١- صعيد التقنيات الاعلامية المتطورة.

٢- صعيد عولمة قيم حماية حقوق الإنسان ومنها الحقوق اللغوية.

والمقـــصود بمـــوت اللغة ان يتوقف استعمالها. وينعدم من يتواصل بها حتى وان بقـــيت محفوظة لى الكتب او مسجلة على الاشرطة وتشير الاحصائيات الاكثر دقة الى ان عـــدد اللغات الحية الموجودة فى العالم اليوم يتراوح ما بين ٦٠٠٠و٧٠٠٠ لغة [١]. وان كثيـــرا مـــن اللغات فى الشرق والغرب قد انقرضت فعلا بوفاة اخر من يتكلم بها، كما ان لغات اخرى فى طريقها الى ذلك اذا لم نقم بفعل شىء لحمايتها.

---

(١). راجع فى هذا : Language Death p3

٧- دور المسلمين فى حماية اللغة :

من الواضح ان المسلمين غائبون تماما فى الجهود المبذولة لحماية التراث الإنساني ولعل اليونسكو وهى منظمة غربية الفلسفة والنشاة تقوم بجهود مشكورة فى هذا المجال. والعجيب ان الغرب وهو منشا الاستعمار والعولمة هو ايضا منشا الجمعيات والمؤسسات العاملة فى مجال حماية اللغات.

ومن المفارقات ان المؤسسات البحثية فى الغرب، وبتمويل غربى، واحيانا حكومى، تعمل جادة لحماية بعض اللغات الإسلامية الايلة للانقراض، والتى ربما لم يسمع بوجودها مسلم بله العمل على حمايتها. ومن امثلة ذلك لغة الاجمت وهى لغة المسلمين بالاندلس بعد ان هيمن عليها المسيحيون. وهذه اللغة عبارة عن لغة عربية مسبوكة فى قلب نحوى وصرفى اسبانى. وتفسير ظاهرة ازدواجية القيم فى الغرب راجع الى الطبيعة العصرية للعالم الغربى والذى لم يعد غربا واحدا كما نتخيله. ان صورة الغرب المسيحى ينبغى ان تطوى فى دواليب التاريخ، فالغرب اليوم عبارة ان خليط من المذاهب والرؤى المتعارضة والمؤسسات المتشعبة، فليست هناك رؤية واحدة للعالم يمكن ان نطلق عليها الرؤى الغربية، كما لم يعد هناك اطار نظرى واحد يلم شتات الفلسفات الرائجة فى الغرب. وعليه فان الادعاء بان الغرب يريد القضاء على الخصوصيات الثقافية عن طريق العولمة يوازى فى خلطه التعميمى الادعاء المقابل بأن الغرب يريد نشر الديمقراطية. والسؤال المطروح هنا هو اين المسلمون واين المؤسسات الإسلامية فى مجال حماية التراث الإنساني؟ يبدوا ان هذا الغياب يمكن تفسيره من الناحية السوسيونفسية وهو ان الحضارات الضعيفة عادة ما تنكفىء على نفسها معتقدة انها الوحيدة المهددة، هكا فان المسلمين اليوم مهتمون اكثر بشؤونهم الداخلية، ولا يرون فائدة فى دعم الابحاث المتعلقة بحماية تراث الاخرين. وكيف يحمى المسلمون تراث الإنسانية وتراثهم يعانى من تقصيرهم فى العناية به؟

٨- السياسة اللغوية في العالم الاسلامي، اطلالة على بعض النماذج:

حيـنما نـتحدث عـن العالم الاسلامى فى مجال السياسات اللغوية فاننا نقصد تلك الـدول الإسلامية التى تعانى من وجود صراع طائفى ذى نزوع لغوى، ولن نتحدث هنا عن الدول ذات التعددية اللغوية المتعايشة.

ولعـل الـباحث مـضطر الـى الاقتصار على بعض النماذج التى تتوفر حولها معطـيات كافية الخلق تصور متوازن عنها. ويمكن تعميم بعض نتائج هذه الورقة على دول لم نتحدث عنها مع اخذ خصوصيات كل بلد بعين الاعتبار.

لاشـك ان اغلـب دول العالم الاسلامى دول متعددة الالسن. ففى المغرب العربى لغـتان محليـتان الامازيغـية والعربية، وفى العراق وسوريا العربية والكردية وبعض اللغـات الاخـرى، وفـى تـركيا خليط من اللغات فهناك التركية والكردية والعربية والاذريـة وغيـرها، وفـى باكـستان الاورديـة والبنجابية، وفى افغانستان الفارسية والاورديـة. هذا الفسيفساء اللغوى والقومى فى ظل غياب العدالة الاجتماعية، والوعى الحـضارى الوحدوى يمكن ان يكون عاملا من عوامل تهديد الامن القومى، وزعزعة الاستقرار.

ولقد حدث هذا فعلا، فاستقلال بنغلادش عن باكستان كان راجعا فى جزء مهم منه الـى قـرار محمـد على جناح بجعل الاوردية اللغة الرسمية للبلاد وشكل هذا ضربة للاحـساس القومـى لسكان البنغلادش الذين يتكلمون اللغة البنغالية. كما ان الجزائر لا زالـت تعانـى سياسيا وامنيا من المشكل اللغوى بين سكان منطقة القبائل ذوى اللسان الامازيغـى والدولـة التى اقرت العربية لغة رسمية للبلاد، اما العراق فقد اتسع خرقة علـى الراقع وظهرت اهمية المكون اللغوى فى التحول السياسى، كما ان اوضاع هذا الـبلد العظيم تجعلنا على وعى باهمية وضع سياسات لغوية معتدلة ورشيدة من خلالها نستطيع تشجيع الوحدة من خلالها التنوع والتنوع من خلالها الوحدة.

٩- السياسة اللغوية في شمال إفريقيا نموذجًا:

يضم شمال افريقيا شعوبا تجمعها خصائص مشتركة ولعل أهمها اللغة، فلسان المنطقة الاصلى هو الامازيغية وليس البربرية كما هو شائع فى التداول لما فيها من التحقير للامازيغ أو الاحرار. وهى لغة كنعانية تنتمى الى الاسرة اللغوية السامية. ولعلها كانت لغة الشعوب الكنعانية التى استوطنت شمال افريقيا وجزاء كبيرا من اوروبا بما فى ذلك اسبانيا وفرنسا. ويشير ابن خلدون الى ان الشعب الامازيغى شعب ذو حضارة عظيمة ويكفى ان تكون حواضر الشمال الافريقى مراكز للعلم والتجارة فى عصور ما قبل الميلاد وبعده، كقرطاجة وطنجة وموغادور او الصويرة الحالية. وسواء كان سكان الشمال الافريقى ذوى اصول اوروبية كما يدعى مؤرخى الغرب، او كانوا كنعانيين كما تؤكد ذلك دراسات تاريخية اخرى، فان الراجح ان الحضارة الامازيغية الكنعانية لم تتوقف عند حدود افريقيا بل تجاوزت ذلك الى اوروبا. ولعل اسماء الدن فى فرنسا شاهدة على اصلها الكنعانى، كليون،وباريس، ومالقة وغيرها. وبسبب هذه الحضارة العظيمة رفض اهل المغرب اى سيطرة اجنبية، ويحكى تاريخ الكنعانيين فى صور، او قرطاجة او طنجة، قصة شعب لا يقبل ان يهيمن عليه، ولهذا فشل الرومان وقبلهم الوندال فى احكام السيطرة على المنطقة، وحتى المسلمون لم يستطيعوا اخضاع المغرب الا بعد منحهم السيادة على انفسهم ويلاحظ ان المغرب الاقصى مثلا ظل مستقلا عن كل الخلافات الإسلامية المتعاقبة بحيث لم يخضع للامويين ولا للعباسيين ولا للعثمانيين. وهو ما يعنى ان قبول اهل المغرب للاسلام والعربية كان نابعا من احساس كبير بالخصوصية، ولقد استمر هذا الاحساس ولا زال مستمرا فى اشكال ثقافية مقنعة ولعل اهمها المنافسة المغربية المكشرقية فى مجالات الثقافة والابداع.

أ. حركة التعريب في شمال افريقيا:

من اهم الاسئلة المطروحة فى مجال عربية المغرب السؤال المتعلق بسبب بقاء اللغة الامازيغية قوية الى جانب اللغة العربية، بحيث لم يحدث فى المغرب ما حدث فى مصر والشام حيث نجحت حركة التعريب الشامل للمنطقة لتموت بذلك لغاتها وثقافتها لصالح الثقافة الغالبة وهى الثقافة العربية، كما لم يحدث فى المغرب ما حدث فى بلاد فارس وما وراءها من اسلمه بدون تعريب ولعل الاجابة تكمن فى ما سبق وان اشرنا اليه قوة الانا الحضارية عند الامازيغ، بالاضافة الى تضاريس المغرب الاوسط والاقصى وهى تضاريس جبلية حافظت على نوع من الاستقلال الجغرافى واللغوى للسكان الاصليين، وهو ما يفسر نجاح التعريب شبه الشامل فى تونس.

بعد وصول العرب الفاتحين للمغرب، كانت المنطقة تعرف نوعا من الاذدواجية اللغوية، فالامازيغية هى لغة العامة، واللاتينية هى لغة النخبة من المتعاملين مع الرومان ولم تستطع الرومنة أو التلتين تحقيق أى نجاح يذكر نظرا للعداء المستحكم بين الرومان والبربر، فى الوقت الذى نجحت فيه عملية التعريب بشكل تدريجى.

ويبدو أن المحاولات الأولى للتعريب قد فشلت بسبب المقاومة الثقافية العنيفة التى نهجها أهل الغرب فى مواجهة هيمنة الأرستقراطية العربية فى المدن. ويفسر هذا تكون صورة نمطية للبربر لدى العرب أساسها التحقير والرغبة فى الهيمنة، فلغتهم فى تصور أحد المؤرخين بربرية تمتلئ رطانة بلا إفادة [1]، أما ياقوت الحموى فقد ذكر أن " البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشًا، وأسرعهم إلى الفتنة أطوعهم لداعية

---

(١). تاريخ ابن خلدون ج ١٨٥/٦

(١). عن : محمد حسن، الأصول التاريخية للتعريب فى المغرب العربى، فى : تطور الوعى فى المغرب العربى، سلسلة كتب المستقبل العربى رقم ٨، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦، ص : ١٢٢

الـضلال، وأصغاهم لنمق الجهالة، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط، بل أن آدم تبرأ من أنتسابهم إليه:

رأيت آدم فى نومى فقلت له　　أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البربر نسل منك قال أن　　حواء طالقة إن كان قد زعموا[1]

ولـو نظـرنا للـنص هنا من منظور تحليلى نقدى لوجدنا أن الحموى هنا يلخص الـصورة التى يريد خطاب السلطة فى المشرق تكوينها عن المغرب، فقوله أنهم أجفى الخلـق اعتراف منه بصلابتهم وقوة شكيمتهم، وكثرة الطيش دليل على حبهم للمواجهة التـى قـد تودى بحياتهم بدل العيش بسلام مع انعدام سيادتهم على أرضهم، وسرعتهم إلـى الفتنة مؤشر على تصميمهم على العصيان والتمرد، وطاعتهم للضلالة دليل على انقيادهم لجهة المعارضة سواء كانت علوية أم خارجية.

وللتدلـيل على ان الصراع لم يكن دينيًا بل كان قوميًا وثقافيا أن كثيرا من العرب قـد لجـأوا الى وضع أحاديث على لسان النبى الكريم تحط من قدر الأمازيغ وتصفهم بـأرذل النعوت، فلجأ البربر أنفسهم إلى ذات الآلية فوضعوا أحاديث نبوية فى فضلهم وأن الدين سيعزبهم [2] مما يشير إلى أن البربر قد قبلوا الإسلامولكنهم لم يقبلوا الهيمنة العـربية إلا فـى وقـت متأخـر جدا حينما أسس البربر ممالك قوية فى شمال أفريقيا والأنـدلس واختاروا راضين أن يكون اللسان العربى لسانهم، لتبدأ بذلك رحلة التعريب المـوفقة والخالـية مـن مشكل التنافس القومى، وهكذا فإن الوضعية اللغوية للمغرب العربـى فى العصر الحاضر تعكس الإنسجام التاريخى بين العرب والبربر ظهرت فى التـزاوج والتساكن بل إن هناك قبائل عربية تمزغت بالكامل، وقبائل أمازيغية تعربت

---

(٢). راجع فى مثل هذه الأحاديث : الحموى، معجم البلدان، ج١/٥٤١-٥٤٣

بالكامـــل وظهـــر هذا الإنسجام التاريخى فى مواجهة الظهير البربرى الذى حاولت به الإرادة الإستعمارية التفريق بين العرب والبربر.

ب- السياسة اللغوية ومشكل توحيد اللغة :

لا شـــك أن عملـــية التوحيد اللغوى فى شمال إفريقيا قد نجحت بالكامل، وإن ظل اللـــسان الأمازيغـــى حاضرًا بقوة، الإ أن الوضع النفسى للإنسان الأمازيغى يشير لى إنـــتمائه الحضارى والقومى للأمة العربية. إن فكرة التوحيد اللغوى تشبه فى خطورتها العـــولمة التى تنادى بتوحيد انماط الحياة ومعيرة القيم وفقا لتصورات الأقوياء. ومع ان دول المغـــرب العربـــي وخـــصوصا المغـــرب قد فطنت لجدوى إعتماد سياسة لغوية منفـــتحة، ومـــع ذلـــك فإنـــنا نلاحظ أن ثمة أخطاء يمكن تجاوزها فى السياسة اللغوية بالمغرب والجزائر. ونذكر منها :

- الإصـــرار على البعد القومى للعروبة، بإستثناء المغرب الذى ظلت السلطة فيه تـــؤكد علـــى الـــبعد الدينى للعروبة، ومن هنا يمكن تفقسير شدة التلاحم بين العـــرب والبربـــر فـــى المغرب مقارنة بالجزائر التى كان البعد القومى فيها ضعيف الصلة بالدين نظرا للطابع الإيديولوجى لسلطة مابعد الإستقلال.
- إنعـــدام أى إشـــارة إلى اللغة الأمازيغية والقافة المحلية فى الدستور. مما جعل تأسيس الجمعيات ذات الخلفية الإثنولغوية تواجه عراقيل متعددة.
- غـــياب أى تـــشجيع رسمى للغة الأمازيغية، ولقد حاولت الحكومة الجزائرية والمغربية تجاوز هذا المشكل بتبنى تدريس الأمازيغية فى المدارس.
- الـــربط الميكانيكـــى والـــسطحى بين المناداة بالحقوق اللغوية وتفتيت الوحدة الوطنية. ولتجاوز هذه المشكلات نقترح الأتى :
- الإعتـــراف بالحقـــوق اللغـــوية للأمازيغ وحريتهم فى إستعمال لغتهم وكتابتها تتدريسها وتطويرها.
- تشجيع الجمعيات الأمازيغية ذات البعد الثقافى.

- عـــدم تـــسييس المـــسألة الأمازيغية لما فى ذلك من خلق الشقاق بين مكونات المجتمع العربى، وكذا تهديد الأمن القومى للدول العربية.
- تشجيع البحوث الأكاديمية فى هذا المجال لقطع الطريق امام من يريد إستغلال المسألة الأمازيغية لأغراض غير ثقافية
- التـسلح بالـشجاعة الفكـرية وفتح نقاش جدى حول إعادة النظر فى مكونات الهوية الثقافية للمغرب العربى.

١٠ – المسألة الكردية :

تخـتلف الدراســات الإثنوغرافية حول أصول الأكراد، فمن قائل أنهم ذوو أصول إيـرانية ومـن قائل إن أصولهم عربية ولكنهم نزحوا إلى الجبال فاستوطنوها [١] وهذه الأطـروحة لا تخـتلف من حيث أهدافها عن أطروحة عروبة الأمازيغ ونزوحهم إلى الـشمال فـى إفـريقيا من الجزيرة العربية[٢]، ومن المؤرخين المسلمين من أشار إلى الأصـول الفارسـية للأكراد[٣]، كما أن هناك أطروحة مفادها أن الأكراد من الشعوب الهندأوروبـية. وأيـا ما ما كان أصل الأكراد فهم بلا شك شعب مميز بسمات خاصة تجعـل هويـته ذات وجه واقعى. ولعل اللغة الكردية من أهم هذه السمات وأوضحها. ولقـد تعـرض النسيج القومى للأكراد إلى نوع من التمزق العشوائى بين هويات قوية تاريخـيا وثقافـيا وهى: الهوية العربية والهوية الفارسية ثم الهوية التركية، ولهذا وبعد انفراط عقد الخلافة الإسلامية وتأسيس الدول القطرية وجد الإكراد أنفسهم مقسمين بين دول قطرية كبرى كإيران والعراق وتركيا وإلى حد ما سوية ولبنان.

---

(١). المسعودى، مروج الذهب، ج٢ / ٩٩، ط١، ١٩٦٥، دار الأندلس بيروت.

(٢). فـى عـروبة الأمازيـغ: راجع : محمد على مادون، عروبة البربر، المنظمة العربية للتـربية والثقافة والعلوم ١٩٩٢، ومحمد مختار العرباوى، فى مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الإنقسامية، دار نقوش عربية، تونس ١٩٩٨

(٣) راجع المسعودى، مروج الذهب.

ولعلـــه يمكـــن التأريخ للوعى القومى الكردى ببداية القرن التاسع عشر، بدأ يظهر نـــوع مـــن النـــزوع نحو تحديد القومية الكردية وضبط معالم هويتها، ومع أن الشعب الكـــردى شـــعب طـــاعن فى التاريخ من حيث الوجود، فإن إحساسه القومى بالمعنى الحـــديث للقومية لم يظهر إلا فى مراحل متأخرة فى التاريخ وتحديدا فى القرن التاسع عـــشر. فحينما حاولت الدولة العثمانية إعادة ضم أقاليم كردية إلى نفوذها عد هذا خرقا للمعاهـــدة التى وقعها الأمير الكردى شرف الدين البدلسى مع الخليفة العثمانى سليمان القانونى.كما أن الأشتغال الفعلى للوعى القومى الكردى يمكن عزوه إلى ثورة عبيد الله النهـــرى فـــى شمال كردستان والتى إنتهت بمقتله عام١٨٨٣[1]، ومع أن هذه الثورة لم تحقـــق أهـــدافها إلا أنهـــا عـــبدت الطريق أمام ثورات كردية لم تتوقف طوال القرن العـــشرين ولعـــل من أواخرها إنتفاضة ١٩٩٢ ضد الحكومة العراقية والتى أدت إلى إنـــشاء المـــنطقة الأمنة شمال العراق. ولعلنا نستطيع الإدعاء بأن الشعب الكردى وهو الـــشعب العمـــيق فـــى تدينه وإسلامه لم يكن مندفعا أشد الإندفاع نحو تأسيس القومية الجغرافية، ويمكن تفسير نمو الحس القومى والإنفصالى لدى الأكراد بما يلى:

- قـــوة المد القومى العروبى و التركى و الفارسى، فالأول إنتهى بالإنفصال عن الخلافة العثمانية، وثانيا بتأسيس أنظمة سياسية عروبية ذات إيديولوجية قومية كالعـــراق وسوريا. والثانى إنتهى بتأسيس الدولة التركية الحديثة بعيدا عن أى أســـاس إسلامى أو عمق دينى، ولهذا فإذا كان من الطبيعى أن يندمج الأكراد فـــى كـــيان سياســـى ذى بعد دينى شامل، فمن المستغرب حقا أن يطالب هذا الـــشعب بالخضوع لقوميات غير دينية لا تمتاز عن قوميته الخاصة. ومن هنا كانـــت الـــصحوة القومـــية الكردية رد فعل طبيعى على الإنبعاث القومى فى مناطق الجوار.

---

(1). See, Robert Olson, 1991, the emergence of Kurdish Nationalism 1880-1925 1st ed , University of Texas Press , p1

- خـضوع الأكـراد لأنظمـة قومية مارست نوع من القهر السياسى، وحاولت تعلـيب كل الإثنيات فى بوتقة القومية الغالبة، هذا ما يفسر الخلاف الجوهرى بـين الأكراد والأمازيغ فى شمال إفريقيا، ففى حين يرزح الأكراد تحت أنظمة شمولية، فإن الأمازيغ فى المغرب العربي هم حملة لواء التعريب، والمدافعون عـن قـيم العروبة، والسبب أنهم لم يخضعوا لأنظمة إستبدادية شبيهة ببعض الأنظمة فى المشرق العربي.

ا- اللغة الكردية في السياسة اللغوية في العراق :

تعـد اللغة الكردية من فروع عائلة اللغات الهندوأروبية[1] وتتفرع إلى لهجتين أساسيتين :- كورمانجـى وسـورانى، واللـتان بـدورهما تتفرعان إلى لهجات محلية متعددة. والملاحـظ أن سياسـة التعـريب التى اتبعت فى المنطقة الكردية لم تكن ناجحة حيث ظلـت اللغة الكردية لسان الأكراد ولم تتجاوز اللغة العربية مستوى كونها لغة التخاطب الرسـمية أو لغة التعليم، اما أن تتحول العربية إلى اللغة الأولى للأكراد لم يحصل هذا إل فـى بعـض الأوسـاط الكـردية المدينية ذات الصلات الواسعة بالعرب. ولقد كان بالإمكـان للتعريب أن ينال حظا من النجاح لو تم إنتهاج سياسة لغوية عادلة تقوم على ركنين :-

- الإعتـراف بالحقوق اللغوية ضمن مفهوم شامل للوحدة الوطنية حيث يعترف للأكـراد بحقـوقهم المـساوية لغيرهم من العرب، كما يعترف الأكراد بحق وطنهم فى البقاء موحدا فى إطار سياسى منسجم. ويلزم عن هذا تشجيع تعليم اللغـة الكـردية، وتحـويلها إلـى لغة رسمية للدولة جنبا إلى جنب مع اللغة العربية.
- الإبـتعاد عـن إعطاء بعد تبشيرى للقومية سواء من جهة الأكراد أو غيرهم، لأن تحـويل القومـية الكـردية إلى إيديولوجية سياسية ستؤدى إلى إنقسامات

(1). The new encyclopedia Britannica 1998. 15th ed.USA. Vol7.P40

سياســـية كبيـــرة لم يستعد أحد لتحمل تبعاتها بعد سواء الأكراد أم غيرهم، كما ان تحويل القومية العربية او التركية إلى إيديولوجية من قبل الدولة سيؤدى لا محالة إلى الإستبداد والهيمنة.

•••••••

obeikandl.com